للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

– ٢٨ –

« قرأت كلمة الأستاذ سيد قطب (بين العقاد والرافعي) في العدد السالف من الرسالة ؛ وأنا أعمل الآن عمل المؤرخ لحياة قد استأثر بها التاريخ ، والأستاذ قطب يريد أن يكون ناقداً ، وفي مذهبه أنه « لا يصح أن يكون الموت معطلا للنقد » ... وفي مذهبنا أنه لا ينبغي أن يكون بيني وبينه جدال يعطل التاريخ ؛ ومع ذلك فان ما أتى به من النقد ليس بشيء عندنا . ولقد مات الرافعي ولكنه خلف طائفة كريمة من الأدباء ، كلهم أمين على أدبه حريص على تراثه ؛ فلا جرم أن يتولى تزييف هذا النقد أو تعديله رجل غيري ممن خلف الرافعي لهم أدبه أمناء عليه ، لأفرغ لما أنا فيه ؛ فلينتدب له صديقنا (الأستاذ محمود محمد شاكر) ، فتلك من أمانات الرافعي في عنقه »

العريان

الملاح التائه

بعد ما أنشأ الرافعي مقالة « وحي الهجرة في نفسي » للعدد الممتاز من الرسالة في سنة ١٣٥٣هـ ، أهدى إليه الشاعر المهندس على محمود طه ديوانه « الملاح التائه » ، وأحسبه طلب إليه أن يكتب عنه . وكان بين الرافعي والشاعر المهندس صلة قديمة من الود ، أظنها نشأت في حجرة الأستاذ فؤاد صروف محرر المقتطف ، حيث كان الرافعي يقضي أكثر أوقات فراغه كلما هبط إلى القاهرة لعمل من أعماله . وهناك كان يلتقي الرافعي ، وصروف وإسماعيل مظهر ، ومحمود شاكر ، والمعلوف ، وغيرهم من أدباء العربية ، فيحتدم الجدل ساعات في موضوعات شتى من الأدب . ولم يكن للرافعي ندوة أدبية يقصد إليها كلما جاء القاهرة منذ هجر فلانة — أحبّ إليه من دار المقتطف ، ثم صار له ندوة ثانية من بعدُ حين اتصل سببه بالرسالة ؛ فكان يقضي وقته بين عيادة الدكتور شخاشيري في فم الخليج ، وعبد القادر حمزة والمازني في البلاغ ، وإخوان صروف في المقتطف ، والزيات في دار الرسالة. ولم يلتق إلا مرة أو مرتين بالأستاذ أحمد أمين والدكتور عزام في لجنة التأليف والترجمة والنشر ، عندما كانت اللجنة قائمة على طبع كتابه وحي القلم

قلت : إنه كانت بين الرافعي والشاعر على محمود طه صلة من الود ، ومنها أن الشاعر المهندس وضع له رسماً (تصميما) للبيت الذي كان في نيته أن يبنيه لينتقل إليه وينقل دار كتبه قبل أن يموت . ولهذا البيت قصة لم تتم ، لأن هذا البيت لم يتم ... فقد كان كل ما ادخره الرافعي من جهاده بضعاً وثلاثين سنة ، بضع مئات من الجنيهات، اشترى بنصفها قراريط لينشئ فيها حديقة وبيتاً يسكنه — إذ كان وما زال إلى أن مات يسكن بيت أبيه — وبقي معه بعد ذلك قدر من المال لا يكفي نفقات البناء والانشاء ، فآثر أن ينتظر حتى يجتمع إليه شيء ، وأسلف صهره ما بقي عنده من المال إلى أجل ، وفي النفس أمل ... ثم ... ثم جاءت الأزمة فأكلت ثروة صهره جميعها لم تُبق منها على شيء ، وضاعت ذخيرة الرافعي فيما ضاع ولم يستطع المدين وفاء الدين ، فلم يبق للرافعي من جهاده وما ادخر إلا الأرضُ الخربة ، والأمل في عطف الله ، وخطوط تبين حدود البيت وحجراته وأبهاءه وحديقته، مرسومة على ورقة زرقاء ... !

وجاءه ديوان الشاعر على محمود طه ، وديوان الماحي ؛ فدفعهما إليّ لأختار له ما يقرأ من كليهما . ولم أكن أعرف يومئذ ما بينه وبين الشاعر المهندس ، ولكن رأيي في ديوانه وافق هواه ؛ فما فرغت من قراءته حتى دفعته إليه وعلى هامشه إشارات بالقلم ، وما دفعته إليه حتى تهيأ للكتابة عنه ...

وأنشأ مقالة مسهبة نشرها في المقطم ، تحدث فيها عن الشعر حديثاً يبين مذهبه وطريقته في فهم الشعر وفي إنشائه ؛ ثم انثنى إلى الشاعر المهندس يمدح ويثني ، وينتقد وينصح ... وكان مؤمناً بما كتب ، ولكن إيحاءات من الواعية الباطنة [1] كانت تملى عليه بعض الحديث في التعريض ببعض الشعراء المعاصرين ...

وتناول الأستاذ المازني ديوان « الملاح التائه » في البلاغ بعدما تناوله الرافعي ، فعاب عليه أشياء كان يمتدحها الرافعي ،

(١) الواعية الباطنة : هو تعبير الرافعي عما يسمونه في علم النفس بالعقل الباطن

وأخذ على الشاعر أنه كثير العناية باللفظ والعبارة وجزالة الأسلوب؛ فكانت مقالة الأستاذ المازني حافزة الرافعي على أن ينشىء مقالة الرسالة فى الرد عليه ، جعل عنوانها « الصحافة لا تجنى على الأدب ولكن على فنيّته » ؛ فهذه المقالة كان الرافعي يقصد الأستاذ المازنى ، دفاعاً عن صديقه الشاعر ، أو دفاعاً عن مذهبه في الشعر . وكانت هذه أولى مقالات الرافعى فى الرسالة بعد فترة من مقالة « وحى الهجرة » وقد أنشأها على نهجه القديم ، وحاول فيها فناً من التهكم فى قصة اخترعها عن الأصمعي الراوية فى عهد الرشيد

* * *

فى الرسالة

كان الرافعي مفتوناً بمقالاته الثلاث التى أنشأها فى هذه الفترة : البلاغة النبوية ، وحقيقة المسلم ، ووحى الهجرة . وكان حسن وقعها عند كثير من القراء حافزاً له على الاستمرار فى هذا الباب من الأدب الديني ، فعقد النية على أن يكتب السيرة النبوية كلها على هذا النسق الفلسفى ، ليجعلها كتاباً بعنوانه ، يتناول سيرة النبي المعظم — صلى الله عليه وسلم — على طريقة من التحليل والفلسفة ، لا على نسق من الرواية . فأنشأ بعد ذلك مقالاته : « سموّ الفقر » ، و « الانسانية العليا » ، ثم بان له من بعدُ أن هذا الفن من الانشاء عسر الهضم عند كثير من قراء الرسالة ، فتركه إلى موضوعات أخري يعالج بها بعض مشاكل الاجتماع فى الحياة المصرية ، على أن يكتب ما يتيسر له من المقالات النبوية نجوماً فى فترات متباعدة حتى لا يمل قراءه أو يثقل عليهم . وسأتحدث من بعدُ عن كل مقال من المقالات التى أنشأها للرسالة فى الفترة التى صحبته فيها ، لعل ذلك يعين على فهم أدب الرجل ودوافعه ومعانيه ؛ ولعله يبلغ بى الوسيلةَ إلى الذين لا يفهمون أدب الرافعى ثم يحاولون أن يتحدثوا عن أدب الطبع وأدب الذهن ، أو الأدب الفنى والأدب النفسى ...

ولكن عليّ قبل أن أبدأ هذا الحديث ، أن أصف الرافعى حين يهم بموضوعه ، ثم حين يفكر فيه ، ثم حين يتهيأ لكتابته ، ثم حين يمليه عليّ من القصاصات المبعثرة على مكتبه ، فان ذلك من الموضوع فاتحته وأوله :

* * *

اختيار الموضوع كان أول عمل يحتفل له الرافعى ؛ وإذ كان لم يعمل فى الصحافة قبل اشتغاله بالرسالة ، فإنه لم يتعود من قبل أن يفتش عن الموضوع ؛ ولم يكن يحاول الكتابة إلا أن يدفعه إلى الكتابة دافع يجده فى نفسه قبل أن يطلبه ؛ فلما دعاه الزيات ليكتب للرسالة موضوعاً كل أسبوع ، راح يلتمس الموضوعات التى تصلح أن يكتب فيها للرسالة . وكان يضيق بذلك ويتحير ، ثم لم يلبث أن تعودها ، فكان يرسل عينه وراء كل منظر ، ويعد أذنه وراء كل حديث ، ويرسل فكره وراء كل حادثة ، ويلقى باله إلى كل محاورة ، ثم يختار موضوعه مما يرى ويسمع ويشاهد ويحس ، ثم لا يبدأ أن يجمع له فكره ويهيئ عناصره إلا أن يجد له صدى فى نفسه ، وحديثاً فى فكره ، وانفعالا فى باطنه . وكثيراً ما كان يعرض له أكثر من موضوع ؛ وكثيراً ما كان يرجح عليه فلا يجد موضوعه إلا فى اللحظة الأخيرة ، واللحظة الأخيرة عنده قبل موعد إرسال المقال بثلاثة أيام !

ثم من ذلك ، ومن خشية الإرتاج والحرج ، كان دائماً فى جيبه ورقات ، يكتب فى إحداها عنوان كل ما يخطر له من موضوعات الأدب ، ليعود إليها عند الحاجة ؛ ويتخذ الورقات الباقية مذكرة يقيد فيها الخواطر التى تتفق له فى أىّ من هذه الموضوعات أين يكون . وبلغ بذلك أن يجتمع عنده فى النهاية ثبتٌ حافل بعناوين مقالات لم يكتبها ولم يُفرِغ لها باله ، وورقاتٌ أخرى حاشدة بخواطر ومعان شتى فى أكثر من موضوع واحد ، لا تربط بينها رابطة فى المعنى ولا فى الموضوع . ومن هذه الورقات ، ومن فضلات المعاني فى المقالات التى كتبها وفرغ منها — كان يختار « كلمة وكليمة » التى كان ينشرها فى فترات متباعدة من الرسالة — كلما وجد حاجة إلى الراحة من عناء الكتابة . فهذه الكلمات هى إحدى ثلاث: خواطر مبعثرة كان يُلَفّقها فى غير وقتها، أو عناوين موضوعات لم تتهيأ له الفرصة لكتابتها ، أو فُتاتٌ من مقالات كتبها وفرغ منها وبقيت عنده هذه المعانى بعد تمام الكتابة إذْ لم يجد لها موضعاً مما كتب

وبسبب أنه كان يقيّد عناوين الموضوعات التى كان يختارها ليكتبها فى وقتها ، كان يَعِد قراءه أحياناً بموضوعات ثم لا يكتبها

ولا يفي بما وعد ، لأنه لا يملك منها إلا عنواناً في ورقة بيضاء ؛ ومن ذلك مقالة (الزبّال الفيلسوف) التي وعد أن يكتبها حين أنشأ للرسالة قصة « بنت الباشا » ثم مضت ثلاثة أعوام ووافاه الأجل وما تزال مقالة الزبال عنواناً في رأس ورقة تحته نثار من الخواطر والمعاني التي كان يدخرها إلى يومها المؤمَّل

ولقد وجدْتُ على مكتبه في طنطا غداة نعيه كثيراً من هذه الورقات ، تشير إلى كثير من أمل الأحياء وإلى كثير من خداع الحياة ... !

* * *

... فإذا تم له اختيار الموضوع الذي يتهيأ لكتابته ، تركه للفكر يعمل فيه عمله ، وللواعية الباطنة أن تهيّئ له مادته ؛ ويدعه كذلك وقتاً ما ، يطول أو يقصر ، يقيد في أثنائه خواطره لا تكاد تفلت منه خاطرة ؛ وهو في ذلك يستمد من كل شيء مادة وَحْي ، فكأن في كل موجود يراه صوتاً يسمعه ، وكأن في كل ما يسمعه لوناً يراه ، وكأن في كل شيء شيئاً زائداً على حقيقته يملي عليه معنى أو رأياً أو فكرة ...

فاذا اجتمع له من هذه الخواطر قدر كاف — والقدر الكافي لتجتمع له هذه الخواطر هو يومان أو ثلاثة — يأخذ في ترتيبها معنى إلى معنى ، وجملة إلى جملة، ورأياً إلى رأي . فهذه هي الخطوط الأولى من هيكل المقالة

ثم هو يعود بعد ذلك إلى هذه الخواطر المرتبة — بعد أن ينفي عنها من الفضول ما يدخره لـ « كلمة وكليمة » أو لموضوع آخر — فينظر فيها ، ويزاوج بينها ، ويكشف عما وراءها من معان جديدة وفكر جديد ؛ ولا يزال هكذا : يزاوج ويستولد ، ويستنتج من كل معنى معنى ، ويتفطر له عن كل رأي رأي ، حتى تستوي له المقالة فكرة تامة بعضها من بعض ، فيكتبها

إلى هنا يكون قد انتهى عمل الذهن ، وعمل النفس ، ويبقى عمل الفن والصناعة لتخرج مقالة الرافعي إلى القراء في قالبها الأخير الذي يطالع به الأدباء ... وبيني وبين القراء ميعاد ...

« شبرا » محمد سعيد العريان

من برجنا العاجي

أذكر أني ما قرأت بعض فقرات من « يوليوس قيصر » لشكسبير ، إلا غمرني حزن حقيقي . قصة أخرى أذكر أيضاً أنها كانت تترك في نفسي عين الأثر : هي رواية فرنسية تسمى « نابليون المسكين » لكاتب فرنسي يسمى « برنارزيمر » يصور فيها الامبراطور سجينا في جزيرة سانت هيلانة ، وقد قصت أجنحة هـذا النسر الهائل ، وقلمت مخالبه ، وأمسى مخلوقاً بائساً يهزأ به خادمه ويخفي عنه غليونه الذي يدخن فيه ، ويهمله سجانه الانجليزي ويدعه يتقلب طول الليل على مضجع الألم من مرض أضراسه ، فلا يرحمه ولا يحضر له طبيباً ولادواء، ويلقبه «بالدب» الذي وضع في أنفه حلقة من حديد ويسمح لبعض الزائرين من السائحين أن ينظروا اليه خلسة من ثقب باب حجرته ، كأنه أسد هرم رابض في قفصه بحديقة الحيوان ، هذا الذي كان وحده يقيم العروش ويثل العروش ، ويدب بحذائه العسكري على أديم أوروبا فتهتز لمشيته التيجان على رؤوس الملوك . وكان يقول في صوته الحديدي : أنا وحدي «أوربا» ، فتقول له أوروبا كلها : بل أنت « العالم » . نعم لا شيء يؤلم نفسي مثل رؤية « العظيم » يرى سقوطه بعينيه ، ومع ذلك لقد احتفظ هـذا العظيم بكبريائه حتى النفس الأخير . ولقد كان يصر على أن يلقب بالامبراطور ، ولقد خاطبه في ذلك مرة حارسه الانجليزي قائلا له : إمبراطور على من ؟ وإمبراطور على ماذا ؟ فلم يجد منه إلا تشبثاً . فأذعن رفقا به أو سخرية منه ، وترك له هذا اللقب الذي لا يغني ولا يفيد . ولبث هذا البطل المهجور يعيش في هذه الجزيرة المهجورة إلى أن مات ، لا بين قصف المدافع ودوي الأبواق ودق الطبول وهتاف العالم من جميع الأركان ، ولكن بين سكون النسيان ، لا يشيع جثمانه العظيم غير خادم وسجان . يالقسوة القدر ! ان السماء لتنتقم أحياناً من العظيم الذي يتوهم أنه غير وجه العالم بأعماله ، فتؤخر موته بضعة أيام عن الوقت الذي كان ينبغي فيه أن يموت ، حتى يرى بعينيه قبل أن تغلقا أن العالم بخير لم يتغير فيه شيء بذهابه ، ولم تخفت ضحكاته ولم تقف عجلاته برحيله.

توفيق الحكيم